

بحثٌ عن ألحمة مهزومة خلف اللسان المصفى

نعيم علويّة

«أبو سفيان بن حرب: أَعْلَى هُبَلٍ .
رسول الله (ص): أَلله أعلى وأَجَل»

ياقوت

بحث في متاهات اللغة عن شوارد الوثن والصنم واللات.

1 - الوثن والوطن

يبدو لي أن مجتمع الوطن في عصرنا هو الشكل المتطور لمجتمع الوثن قبل الإسلام. لذلك ألاحق بعض أشكال العلاقة العميقة من خلال شقائِق مشتركة.

اللفظان /وثن/ و/وطن/ من وزن فَعَلَ. ويشتركان في الفاء واللام ويختلفان في العين:

فَعَلَ

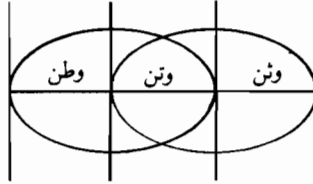
وَعَثَنَ

وَعِطَنَ

الاختلاف محصور في الثاء من /وثن/ وفي الطاء من /وطن/.

وهذان الحرفان قريبان من بعضهما. الثاء لثوية ذلقية (من طرف اللسان) ومن بين الأسنان، والطاء لثوية ذلقية فقط. وكلاهما حرف مهموس لا رنين فيهما لأوتار الحنجرة. إلا أن الطاء مطبقة فخمة المصوِّت أو مستعلية، في حين أن الثاء لينة معتدلة يميل مصوتها نحو الانخفاض وهي رخوة يسيل الزفير من مُتَعَدِّ مخارجها. والخصائص المشتركة تدفع بالواحدة إلى التطور نحو الأخرى، ولكن لا بد لذلك من واسطة. فالثاء لا تتحول طاءً، إلا بمرورها في مرحلة الثاء: ث ← ت ← ط، والعكس صحيح. لكن التحول المباشر من الواحدة إلى الأخرى مشروط بأن الثاء في جوار صامت مستعلٍ كقولنا /طار/ من /ثار/.

والنون ليس من الحروف المتسعلية؛ لذلك على /وثن/، كي تتحول إلى /وطن/، أن تتحول أولاً إلى /وثن/. فهذا التحول يشكل المرحلة الوسطى. ولذا نعتبر /وثن/ حلقه مشتركة بين /وثن/ و/وطن/:



الوصف الذي قدمناه لكل من الثاء والطاء عضوي وله طابع نفسي حين يتعلق بكيفية سمعنا للحروف. ولكنه ليس فيزيائياً ولا رياضياً إلا بقدر ما هو السمعي والعضوي من الفيزياء والرياضيات. لكن الصورة أعلاه هي شكل رياضي منطقي. فهل يصدق التجريد الرياضي في المضممار المعجمي بحيث ينشأ من تقاطع حقل مع حقلين مختلفين حقل مدلولي رابع تجتمع فيه الحقول الثلاثة الأولى؟

في المعجمات عندنا مادة /وثن/ ومادة /وثن/ ومادة /وطن/. وفي الحياة والمأثورات نجد الناس يحولون الثاء تاء: ثوم ← توم، ويحولون التاء طاءً، ويعكسون في كلا الحالين. وما يقع تحت وعي الناس من هذا التحول يظل محصوراً في مجال النطق والسمع ولا يتعداه إلى مجال الفيزياء والرياضيات ومجالات أخرى نجهلها كالكيمياء اللغوية مثلاً. ونحاول الحصول على جواب من خلال ما جاء في معجم «لسان العرب»، وفيه كل مادة مستقلة عن أختها وليس عنده هذا النظر. إلا أن المعجميين الأوائل قد نظروا إلى المادة مع اعتبار قلب الحروف، كما تطارحوا مسألة التحولات الصوتية وحصرها جهودهم في اللفظ والأربعة الألفاظ. لكن معجم الأسر الكبيرة لم يرق بعد. فمما جاء في مادة /وثن/: يقول الليث: «الوثن والوثن لغتان وهما الشيء المقيم الراكد في مكانه. وقد وَثَنَ وَوْثَنَ بمعنى واحد. ومعناها الدُّوم على العهد». وفي المُحْكَم: «العَهْدُ أول المطر الوسمي». وأنشد أبو زيد:

فَهُنَّ مُنَاخَاتٌ يُجَمِّلْنَ زِينَةً كَمَا اقْتَصَانَ بِالْعِهَادِ الْمَحَوْفُ،

معنى العهد المَحَوْفُ: مواقع الوسمي نبتت حافاتها واستدار بها النبات.

ومادة /وطن/ جاء فيها: «وَطَنٌ بالمكان وأوطن: أقام، وأوطنه أتخذة وطناً». و«الوْطَنُ: المنزل تقيم به، وهو موطن الانسان ومحلّه، والجمع أوطان». ولفظ /وطن/ يستعمل لغير الانسان، فيقال: «أوطان الغنم والبقير: مرايضها وأماكنها تأوي إليها». وجاء أيضاً: «مواطنُ مكة: مواقيها». ومن الضروري أن تشمل الأوطان الطبيعية على الماء. وتوطن المكان تمهيداً ليصلح منطلقاً «ترسل منه الخيل في السباق».

لا نلاحظ في /وطن/ ما يدل مباشرة على التكاثر والتواليد، ولا في /وثن/. بينما نجد في /وثن/: استوتت الابل: نشأت أولادها معها. و«استوتن النحل: صار فرقتين كباراً وصغاراً. واستوتن المال: كثر». وفي مقابل هذا نجد في /وطن/ لفظ «المِيطَان»، ويفسره الأصمعي: «هو المِيدَان والمِيطَان». فنحن نلمح في الوطن آثاراً من لوازم الخيل دون الماء والتكاثر. ونقدر أن مدلولاً لازماً متعلقاً بمدلول أساسي لا يغيب عن الدال الأساسي إلا إذا ناب عن الدالِ دالٌّ آخر من أسرته (في الأغلب). فإين الماء؟ نجد في الحديث نهياً عن «أن يُوطن الرجل في المكان بالمسجد كما يُوطِن البعير». وشرح إيطان البعير بأنه «ياوي من عَطَنَ إلى مَبَرَكٍ دث قد أوطنه واتخذة مناخاً».

أطردت بنا مادة /وطن/ إلى مادة /عطن/. و«عَطَنَ الإبل عن الماء [...] رَوَيْتُ ثم بركت». وقد سُمِّي المَرَاخ، وهو مأواها عطناً. و«العَطَنُ للإبل كالوطن للناس، وقد غلب على مبركها حول الحوض، والمعطن كذلك، والجمع أعطان، كأوطان وأوثان. هذا الشح بالماء في /وطن/ قابله سخاء به في أكثر من أخت من أخوات /وطن/. فدالطونة، في التهذيب عن ابن الأعرابي - هذا الرجل الجريء: «كثرة الماء». وفي /وثن/: «وُثِنَت الأرض: مُطِرَتْ؛ ووُثِنَتْ [...] بالماء أي مُطِرَتْ». لكن

الكرم بالماء تجلى في /وتن/: «الواتن: الماء المعين الدائم الذي لا يذهب». وفي الحديث: «أما تيماء فعينٌ جارية وأما خير فماء وإتنٌ أي دائم». وفي شرح الوتين قال ابن منظور: «عَرَقَ [. . .] يسقي العروق كلها الدَّمُ ويسقي اللحم وهو نهر الجسد». خاضت /وتن/ بالماء، ولكنها أقامت صِلَةً حمراء مع /وتن/ حيث شدت انتباهنا بهذا النهر الدموي «نهر الجسد»، إلى نهر دموي آخر كان يجري حقيقةً على النَّصَب من أوثن وأصنام، لكننا أصل الوتين هو سبيل الدماء من العتائر والقرايين والأصاحي والذبايح: «وما هريق على الأنصاب من جسده». ومادة /جسد/ تفيد بعد التأمل: الدم الذي لم يَرَق، فإذا أريق اقتضى ذكر ذلك كما جاء في شعر النابغة أعلاه. وهذا شديد الإغراء بتصور السجود قبل الإسلام عند المساجد التي ربما كانت مجاسد، أي أماكن إراقة الأجساد على الأنصاب، وذلك تسميةً لُطِفَ من تسمية «مذبح»، كـ«مذبح الحرية» وغيره.

لنَجِدَ الآن /وتن/ من الواو لأنه في نظرنا الصوت الذي لجأوا إلى زيادته في الثنائي المضعف لاشتقاق لفظ جديد انسجماً مع وزن /فعل/ غير المضعف. ويكون الجذرُ الأصلُ إذاً هو /تن/. وهذه كما نراها تكون اللفظ المتكوّن بمحاكاة صوت طبيعي إذا لم تكن تطورت عن ثنائيٍّ مضعفٍ شقيقٍ أو وحاديٍّ تَضَعَف. ونقدّر أن /تن/ وأمثالها هي أكثر الألفاظ التي يقع فيها القلب وذلك لأن الصوتين الطبيعيين اللذين ينقلهما الثنائي المضعف إنما يكونان ملتبسين بحيث تختلط صورتها على الحاكين. فمنهم من ينقل /تن/ ومنهم من ينقل /نث/، هذه قاعدة. يجب مراعاتها وقت النظر في أصول الاشتقاق. تنبصر الآن في /تن/. وأرى أن أقرب أصوات الطبيعة إلى هذا المزيج من الجروس هو صوت ماءٍ قليل يخرج منضغطاً من شق في صخرة. وهو بخلاف الصوت المؤلف من الثاء والراء والتابع. من جريان الماء هادئاً فوق الحصى أو من انصباب ماء قليل من علٍ في ماء آخر. ومعجم /تن/ ضعيف الدلالة على ما نبحت عنه وإن كان مفيداً. يقول ابن الأعرابي: «الثَّان: النبات الكثير الملتف». و«ثثن إذا رعى الثَّن» وهو الكلال الذي يعيد الدرّ إلى ضرع الحلوب بعد حَلْبها. و«ثنت إذا عرق عَرَقاً كثيراً». و«الثَّنة من الإنسان [. . .] ما دون السُّرة فوق العانة أسفل البطن». هذه كلها إشارات لا تخلو من معنى الماء من قريب.

وللثاء سبيل آخر، هو سبيلها إلى الشين: ث ← ش. وإذا كان هذا واقعاً أصبح من ضرورات البحث النظر في /شَن/. فقد تكون متاهة معاني /تن/ هنا. ويدون /شَن/ لا تخيب الرجاء، ف«شن الماء على شرايه يشنه شَنًا: صَبَّ صَبّاً وفرقه» و«شنت العين دمعها كذلك». و«الشين: اللبن يُصَبُّ عليه الماء». وشن الغارة: «صبها وبثها وفرقها من كل وجه». و«الشَّانان عرقان ينحدران من أعلى الرأس إلى الحاجبين ثم إلى العينين» وقيل: الشَّانَةُ «هي مدفع الوادي الصغير». و«الشَّوان من مسابيل الجبال: التي تَصُبُّ في الأودية من المكان الغليظ»، كأنها ما يسمونه هنا الشلالات. ولا تبقى هذه المادة محصورة في الدلالة على الماء ولوازمه بل تتعدى السائل الحيادي إلى الدم. ويظهر ذلك في شعر عبد مناف بن ربيع الهذلي:

«وإنَّ، بِعُقْدَةِ الْأَنْصَابِ مِنْكُمْ، غُلَاماً خَرَّ فِي عَلَقِ شَيْنٍ»

وسواء أكان المعنى حقيقياً أو كنايةً فإنه يضع لفظ الدم الشين في الموضع الملائم لنحر العتائر بين أيدي «الأنصاب». لكن ما هي النسخة الأصلية لد /وتن/؟ إن تعريفه بأنه الصنم ووصفه «كصورة الأدمي [. . .] تَعْمَلُ وَتُصَّبُ قُتْعَبَد»، وتحديد مادته «من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها» كلامٌ مفيد. وفائدته أن /وتن/ اسم جنسٍ مثل /صنم/. ما هو الوثنُ الأمُّ؟ الوثنُ العَلَمُ؟

إذا كان أملنا غير كبير في الحصول حالياً على جواب إلا أن استقصاء الأسرة اللغوية التي ينتمي إليها كل من الد/وتن/ والد/وطن/ يؤدي خدمةً الكشف عن فلكية تلك الأسرة وهيكلية المؤسسة الصنمية أو الوثنية. ولهذا الغرض ننظر في إمكانية تحول الثاء سيناً، مما ينتج عنه تحول /تن/ إلى /سن/. يقدم لنا قاموس /سن/ التالي: «سَنَتِ العين الدمع: صَبَّتْ»، و«سَنَ عليه الماء: صَبَّه»، وقيل: أرسله إرسالاً لَيْناً [. . .] من غير تفريق، فإذا فرقته بالصب قلت بالشين» أي شنت عليه الماء. ونخطو خطوة نحو التمثال الضائع الذي يحمل اسم /وتن/ أو /صنم/ حين نقرأ في مادة /سنن/: «وَسَنُ الطَّيْنِ: طَيْنٌ به فَخَّارٌ أو اتخذ منه». و«الْمَسْنُون: المَصُور». و«المسنون: المصبوب على صورة». /سنن/ قربت لنا المسنونات من المَصُورَات. ومن ذلك «سن الشرائع». فَسَنُ الشرائع هو نفسه تفريق الماء وتوزيعه حصصاً أو سقايات بين أعضاء المجتمع. والسَنن من ذلك.

والسنة ثلاثمائة وستون صنماً حول الكعبة. والسين الى النون مادة وسطى بين الوثن والصنم:

(سن + م) ← سنم ← صنم

سن ← وثن ← وثن

ويبدو أن اللسان العربي كان يتراوح بين هذين اللفظين - والإمكانات الصوتية متاحة لهذا التراوح - ولذلك حدث الالتباس في معجميها.

نتنقل من /ثن/ الى /أثن/. فالهمز في أول الشائبي المضعف يزداد كما تزداد الواو. والتعاقب بين /أ/ و/و/ مطرد: اثن ← وثن. و/أثن/ تقدم لنا: «يقال للشيء الأصيل: أثين»، و«الأثنية: نبت الطلح، وقيل هي القطعة من الطلح والأثل». وتفخيم الهمزة من /الأثل/ يقفز - وليس بالضرورة - باللسان إلى /الأصل/. ويساورنا لأجل هذا ظن أن يكون الوثن أبا العشييرة. وهنا يجدر بنا أن نتفكر ملياً في اختلاف القراءة للآية ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا﴾ ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا اثْنًا﴾. ونقف كثيراً عند ضمير المخاطب والمخاطبة /أنتَ/ وضمير المخاطبين والمخاطبات: أنتم، أنت، ن. وتذكر الإثنية: ethnie.

ويؤهنا تصورنا لعلاقة /انت/ بـ /أثن/ وأصلاً بـ /أثن/ و/وثن/ للنظر في /أثن/. نجد في قاموسها: «أَثَنَ بِالْمَكَانِ يَأْتِنُ أَثْنًا وَأَتُونًا: ثَبَتَ وَأَقَامَ بِهِ». و«الأثان: الصخرة تكون في الماء». و«أَثَانُ الضُّحُل: الصخرة العظيمة تكون في الماء...». صخرة تكون على فم الرِّيِّ [البش] فيركبها الطحلب حتى تَمْلَأَ. و«الأثان: الحمارة والجمع أَثْنٌ وَأَثْنٌ وَأَثْنٌ. والأثان قاعدة الفُودج [أي الهودج]. والأثان: المرأة الرعناء» وتلحق به /أثل/، و«الثَّيْلُ: نبات لا يكون إلا على الماء ويستدل به على الماء».

مما يقال في الوثن إنه بلا صورة. حتى يمكن القول إن الصخور المكعبة المقدسة كانت تسمى أوثاناً. واعتقد أن قواعد التماثيل التي تقام فوقها الصور المنحوتة تشير إلى مرحلتين في الأوثان: المرحلة التي يكون فيها الصخر دون التشكيل والتشخيص والمرحلة الثانية تعلوها بالصورة المشخصة. وتفيدنا /أثان/ فوائد عدة: المادة صخرية؛ المكان الماء؛ /أثْنُ/ تفيد الاستيطان على الماء في استنتاجنا؛ وجمع الأثان كجمع أثني أي أَثْنٌ وَأَثْنٌ كـ أَثْنٍ وَأَثْنٍ؛ واتصال مدلولها بمدلول الحمارة والمرأة والهودج يجتمع له في الذهن ألفاظ /إناث/ و/أثان/ و/أثن/. وينشأ تصور قوي من أن الأوثان صخور طبيعية في الماء أو على الماء أو صخور معينة، مع صور أو بلا صور، تقام بجوار الماء وتمارس تجاهها شعائر دينية تؤدي إلى مؤسسة أو مؤسسات تعنى بأمر واقعية وأخرى غيبية. فالخبر عن هُبَل أنه «كان موضوعاً على بير في جوف الكعبة». والأزرقى يقول كان اسمها الأخف أو الأخفش. وأنا أربط الخوف بهذين اللفظين. كما أرى في اسم الخفاش الدلالة على الليل - الذي فيه خوف - وعلى الأماكن المأهولة عند أحواض المياه. «وقد اختصت اللات بالوادي الخصيب الذي تقع فيه مدينة الطائف». ومجتمعاتنا ما تزال حتى الآن تعتقد أن مصانع المياه: المهجور منها والمدفون والصالح والقريب من الحي والبعيد، إنما هي مسكونة بالجن والأرواح الخفية. ولعل الأصل في هذا الاعتقاد كامن في أن الجد هنا وروحه تطوف بالمكان. ولعل مجتمه أو مشواه أو مقامه في أعلى أمكنة المكان. فهذا الجد هو الأثل، هو الأثن، هو الروح المقدس. والله بالانكليزية /god/. والأوساط الجبلية يلفظ بعضها /جَدَ/ بإشمام فتحة الجيم ضمة: جُدْ. ومن لطف الصدف (!) أن الماء بالانكليزية water: /وَتَر/، والتعاقب بين الناء والشاء والراء والنون مطرد:

و	ت	ر
و	ت	ن
و	ث	ن

دون أن ننسى إمكان تحول الواو ميماً: و ← ف ← ب ← م. مما يؤدي بالـ /water/ إلى /مطر/.

هذا الملبج الذي نتخيل أجدادنا يلجأون إليه بطرح سؤالاً لم نجد عليه الجواب الشافي بعد: لماذا أوكل الأقدمون حراسة المورد الأول للحياة، الماء، الى حارس غيبي لا إلى ناظور من الأحياء؟ وفي أحسن الأحوال كان الناظور (الناطور) الحي وكيلاً

للغائب. قد يكون السبب في أن الناطور الحي يحتاج إلى آخر فالأخر، بلا نهاية. أما الغائب فإنه يرانا دون أن نراه، وعنده الجن. قد يكون الأهم من الحصول على جواب الالتفات إلى تطبيع الذات خارج الذات. والنظر إلى طلعتها في وجود مستقل يتعاطى معه الفرد والجماعة تعاطياً يختلف من حد /أنا صانع تلك الهيئة/ إلى حد /تلك الهيئة خالقي/. وأظن أن المشروع الثقافي كله محكوم بطلوع فكرة يُختلف في النظر إليها الاختلاف الذي ذكرناه. فتقول وتستعد لأن تقبل أن الحياة أو جانباً منها مبنئ وفق هذه الفكرة؛ وإما أن تتمرد على الفكرة وتعتبر أنها فكرة عابرة مثل نسمة من أنسام الفكر لينة أو خشنة. ويكبر خطر الفكرة بقدر ما تستحوذ على الكثير أو القليل من عقول الناس وبقدر ما تشمل أو يقل شمولها للحياة. فالعلم يحاول القبض على الجزئيات، والفلسفة والدين يحاولان القبض على الكليات. وعند تصديق الناس للفكرة يعني أنهم آمنوا بها ويعني أنهم أخذوا يجيرون طاقات وقوى واقعية لقوة فكرية خرجت منهم وانفصلت عنهم واستولت عليهم بما يرفدونها به من قوى واقعية ينتجونها يومياً. وإذا ما أذعن النفوس للفكرة يسقط الخوف من خروج البعض عليها، لأن الذين لم يخرجوا يمنعون الخروج. وهكذا يصبح الأحياء، ويصبح جزء من عالم الشهادة جنوداً عند الفكرة التي صارت خارج الناس والتي حُكمت بمصائرهم. وقد لا يجتمع المعارضون أو المرتدون إلا تحت لواء فكرة أخرى نقيضة أو مضادة أو مختلفة. وعندها تصبح جماعات البشر جيوشاً بقيادات من خارج أنفسهم يقودهم وكلاء ذلك الغيب، ويترجم للقادة مثيئة «الرب» أو «الربة» عند اللزوم كُهان أكفاء.

وإذا رجعت من /أُن/ إلى أمها /تُن/ تجد: «التُن: التَّرب والجن. والتُن: الشخص والمثال». و«التُن: ضرب من الحيات من أعظمها. والتُن: نجم رأس [يُعَدُّ مع السعود والذنب مع النحوس] [و] تَن بالمكان: أقام».

ف/تُن/ مدتنا بمعنى «التَّرب» والشخص والمثال. وهما ضمن تسمية التشابه بين الأشخاص باسم «مواطنين» والواحد مواطن. ولعل مادة /ت رب/ أقرب لأن يخرج منها معنى المواطن من السواد إلى البياض لو لم يكن في الوطن سياسة وعقيدة. و/تُن/ بمعنى «أقام» اتحدت في الدلالة مع أخواتها /وَتُن/ و/وَتُن/ و/وَتُن/... وليس فيها معنى الماء إنما وصلت الأرض بالسماء عبر اشتراك نجم مخصوص وحية مخصوصة باسم «تُن». ولكن الأسطورة الجميلة حول التُن تجعله أعظم حيات البحر، تشكوه الحيوانات البحرية إلى الله، فترفعه سحابة وتحمله إلى بلاد أبجوج وأبجوج، فيجتمعون على لحمه ويأكلونه. هذه الأسطورة تصوره حيواناً مائياً، ومخيفاً لم تقو عليه حيوانات الماء الأخرى فاستعانت عليه بالسماء. ولعل في هذه الأسطورة إشارة إلى أن السحب تنطلق من البحر. وإذا كان لهذه الأسطورة من خدمة في حقل بحثنا، فتكون في موافقتها للاعتقاد بأن المياه مسكونة بكائنات مخيفة ظاهرة أو خفية. معهودة أو غير معهودة. ولعل المياه والتفاف الأشجار من حولها يخفي ما يخفي: إن وراء الأكمة ما وراءها. وإني أرشح المياه أصلاً لأساطير الجن. وكان التصور كان على هذه الصورة. الأرض لها سكانها. وكل أرض يحميها أهلها. والمياه لها سكانها وكل مياه يحميها أهلها. والسموات لها سكانها وكل سماء يحميها سكانها، وما الجن سوى عشائر الماء. فإذا اعتديت على مواطنها هاجمتك ودافعت عن نفسها. أما إذا استرضيتها فإنها تكرمك وتبذل لك ما عندها من خيرات جمّة. وما عندها من خيرات هو المياه نفسها والنبات والحيوان على ضفاف الماء أو فيه. فيلاد الجن «من أخصب البلاد وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً» (الحيوان).

وتسلمنا /تُن/ إلى /طل/ من خلال التحول الذي يعتري حروفهما فيحيل التاء طاء والنون لاماً أو العكس: ت ← ط، ن ← ل. وأول معانيها المعجمية الماء. ف«الطَّل: المَطَرُ الصَّغَارُ القَطَر الدائم» و«طَلَّتْ بلادُك: أُمِطِرَتْ»، و«الطَّلَى: الشربة من الماء»، و«الطَّل: هَذَرُ الدَّم»، و«طَلَّه الله وأطَّلَه أي أهدره»، و«الطَّلَاء: الدَّم المَطْلُول». و«الطَّلَل ما شخص من آثار الديار، موضع من صحنها يهيا لمجلس أهلها، وقيل: طَلَّل كل شيء شخصه». وقال «أبو عمرو: الطَّل الحَيَّة، وقال ابن الأعرابي: هو الطَّل، بالفتح، للحية» وقال الأصمعي: الطَّلالة الحُسْن والماء». قال «أبو عمرو: التَّطَلُّ من فوق المكان أو من السَّتر». ولا شك في أن /طل/ تدفعك إلى /هطل/ بزيادة الهاء.

إذا كان الماء وصحن الدار يفضيان بالمادة إلى /وطن/ فإن هدر الدماء يفضي إلى صبيها على الأوثان أو إلى التقاتل. ولا ننس أن الأصنام أو تماثيل مصغرة عنها كانت تحمل إلى ساحات المعارك لتنصر أصحابها. فقد التقت هذه المادة مع سابقتها باشتغال معانيها على الحَيَّة. ولم تخل من معنى «الستر».

وكان الأولى بنا الانتقال من /تن/ إلى /كن/ أو /تم/. لأن التحول بحرف أغلب منه بأكثر من حرف: تن/كن، ت ← ك. أول ما تقرأ في لسان العرب في /كن/. «الْكُنُّ والكُنَّةُ والْكِنَانُ: ومَاءٌ كُلُّ شَيْءٍ وَسْتَرُهُ. والْكِنُّ: البيت أيضاً، والجمع أَكْنَانٌ وأَكْنَةٌ. وفي الحديث: فلما رأى سرعتهم إلى الْكِنِّ ضحك:» وَكَتَنْتُ الشَّيْءَ، سَتَرْتُهُ وصتته من الشمس» وفي التنزيل: «وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا»، و«الْأَكْنَانُ: الْغَيْرَانِ ونحوها يُسْتَكْنُ فيها»، و«الْكُنَّةُ: السَّقِيفَةُ؟» و«الْكَنَانَةُ كَالْجَعْبَةِ غير أنها صغيرة تتخذ للثَّلْبِ». و«الْكَاوِنُ الذي يجلس حتى يتحصَّى الأخبار والأحاديث لينقلها»، قال الحطيتي: أَغْرِبَالًا إِذَا اسْتَوْدَعْتَ سِرًّا وَكَانُوا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ؟ و«الْكَاوِنُ: الموقد [و] المصطلى».

المعاني الوطنية في /كن/ هي: الْكُنُّ البيت، وكننته سترته وصتته. وأكنان الجبال والغيران وكنانة السهام، والكاوِنون: الموقد، وجميع هذه المعاني مما يكون في الْكِنِّ مستورا. ويضاف إليه: «كَتَنْتُ الْعُلْمَ» من «كَتَنْتُه وأكنته في الْكِنِّ وفي النَّفْسِ». ونقرأ في الهامش الأخير لمادة /كن/ في لسان العرب: «ومن أسماء زمزم المكنونة/ انتهى. و«بنو كُنَّة: بطن من العرب» و«كنانة: قبيلة من مَضَرَ. ولولا الاسم الذي أعطي لزمزم لكانت دلالات المادة خلوا من الماء.

ونجد قناة سرية تصل مدلولات /كن/ (من خلال «الكاوِنون الذي يجلس حتى يتحصَّى الأخبار والأحاديث لينقلها» وتوليد الهاء من فتحة الكاف) بمدلولات /كهن/ التي نقرأ في معجمها: قال [الأزهري]: «الكاهن: الذي يتعاطى الْخَبَرَ عن الكائنات في مستقبل الزمان ويُدْعِي معرفة الأسرار... كَثِيقٌ وَسَطِيحٌ وغيرهما، فمنهم من كان يزعم أن له تابعا من الجن ورثيا يلقي إليه الأخبار». وكَفَّرَ الْإِسْلَامُ من يسمعون من الكهان: «وفي الحديث: من أتى كاهنا أو عَرَفَا فقد كَفَّرَ بما أنزل على محمد أي من صَدَقَهُمْ». قال الأزهري: فَلَمَّا بُعِثَ [محمد] نبيًّا وَحُرِسَتِ السَّمَاءُ بالشَّهْبِ ومنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقاءه إلى الكهنة بطل علم الكهانة، وَأَزْهَقَ اللَّهُ أَبَاطِيلَ الْكُهَّانِ بِالْفَرْقَانِ... وأطلع الله (س) نبيه (ص) بالوحي على ما شاء من علم الغيوب التي عجزت الْكُهْنَةُ عن الإحاطة به، فلا كَهَانَةَ اليومَ بحمد الله ومَنِّه وإِغْنَاهُ بالتنزيل عنها».

هذا الخبر لا ينفي عن الجن والشياطين سوابق استراقها أخبار السماء ونقلها لإلقائها إلى الكهنة. بل يؤكد الأزهري في معرض الإخبار عن إبطاله ليغني الله عنه بالتنزيل: «فلا كهانة اليوم...» وهو يهاجم الكهانة بالطبع لاعتبارها لصوصية و«استراق»). واستنكار هذا التجسس على السماء وأخبارها يشبه الصورة المكبرة لاستنكار التجسس على الأرض: «وكانوا على المتحدثين؟». وينفعنا قوله «حُرِسَتِ السَّمَاءُ بالشَّهْبِ» لأنه يقوي الظن بأن العرب كانوا يعلقون أهمية كبيرة على دور الأجسام المنيرة في الحراسة حتى عبدوها. ولعل الإسلام قد كرس دور الشهب في الحراسة لكن بأمر من الله.

هذا هو الكاهن الذي كان أميناً لدى الوثن، يسفر عن أخبار السماء وإرادة السماء على الأرض ويسفر بينهما، قد نحاها الإسلام ونَحَّى معه التعبير بـ كاهن عَمَّنْ بلغ من العلم والحدق والحيلة درجة التعجب: ما هو قليل، كاهن! وإيانا أن ننسى هذا التحول: كَنَ ← كهن، كَنَ ← كَلَّ ← قَلَّ ← قال (قول/ قيل).

في /كهن/ التقى الإنسان والجن. ولو أنهما التقيا في جهن لكان لغويا أسير على الفهم. لأن من عبقرية العربية أن تمد الفتحة الأولى من الثنائي المضعف بهاء بحيث تتحول جَنُّ إلى /جهن/ ومن غرائب الصدق أن يشيع المثل الذي فيه: وعند جهينة الخبر اليقين، كان جهينة سيده الكاهنات أو الكهنة. غير أننا لا نجد في /جهن/ سوى: «جهينة تصغير جُهْنَة، وهي مثل جُهْمَةِ الليل، أبدلت الميم نونا، وهي القطعة من سواد نصف الليل». والجن على كل حال لا تجد خيرا من هذا السواد سترًا لها، فـ «جَنُّ الليل: شِدَّة ظلمته» أي القطعة الأهلك منه.

بعد هذا استطراداً، إذ الأولى بنا أن نمر من /كن/ إلى /جَنَ/ قبل /كهن/ و/جهن/. فما بين /كَنَ/ و/جَنَ/ من معاني مشتركة كثير: «جَنُّ الشَّيْءِ يَجْنُهُ جَنًا: ستره. وكل ما سَتَرَ جَنٌّ وَأَجْنٌ». والجنين هو القبر لستره». و«الجنين: الولد ما دام في بطن أمه لاستتاره فيه». وأشد ابن الأعرابي: «وَجَهَرَتْ أَجْنَةٌ لَمْ تُجْهَرْ» يعني الأمواه المنذنة. والمَجْنُ الْيُوشَاحُ والمَجْنُ التُّرْسُ و«الْجَنَّةُ: الدرع» و«السُّترة»، و«الْجَنَانُ: القلب لاستتاره». هذه معان تفيد أشياء مستترة. إلا أن المعنى الأسرع إلى الذهن من مادة /جَنَ/ هو

«الجن»: ولد الجن... وهم الجنة... سُموا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار... فلا يُروَن، رُفِست الجنة الملائكة في التنزيل «ولقد عَلِمَتِ الجنةُ إني لمُحَضَّرُونَ»، وجعلوا بين الله وبين خلقه نسباً فقالوا: الملائكة بنات الله. «وجن الرجل جنونا وأجنه الله فهو مجنون... إنما هو من نقصان العقل». «والجان: أبو الجن خلق من نار ثم خلق منه نسله». «والجان: الشيطان». «وفي الحديث أنه نهي عن ذبائح الجن» وهو أن يبني الرجل الدار فإذا فرغ من بنائها ذبح ذبيحة... [ف] لا يضرُّ أهلها الجن. «والجان ضرب من الحيات». «وجنت الأرض إذا قاءت بشيء مُعْجِبٍ» وأرض هادرة متجنتة: تهاُل من عُشْبها، وجنون الذباب: كثرة ترمُّه. «والجنة الحديقة ذات الشجر والنخل» والاستجنان: الاستطراب. «وكانت جنة وذو المجاز وعكاظ أسواقاً في الجاهلية».

اقسم الوطن والوطن مادة /جَنَ/. فكانت المشتقات الدالة على الملائكة والسياطين وسائر أنواع الجنّ وعلى الأعمال التي تنسب إلى العالم الغيبي الخيالي المنسوب إلى تلك الكائنات من نصيب الوثن (و/نصيب/ من شقائق الانصاب التي يُستقسمُ لديها)، والجنة في القرآن وطن موعود يضحى لأجله بالأرواح؛ أولئك هم الشهداء.

ونستفيد من الهمز الذي تدفع بها العربية إلى مقبّل الثنائي المضعف بدلاً من الشدة أو لوزن ومعنى مختلفين. فننظر في /أجن/ ونجد أن معانيها تدور حول الماء الأجن الذي قد «تغير غير أنه شروب». والأجنة لغة في الوجنة. «والمتجنة: مدقة القصار، وترك الهمز أعلى لقولهم في جمعها مواجن». «والمتجنة من غير الهمز هي الميتجة. ولعلها اللفظ الذي يستهل به ساحل الشام أغاني الميتجة. كان القصارين كانوا يوقعون دق الثياب التي يغسلونها والأغاني على وزن: عالميج يا بُو الميج يا بُو الميتجة يا بُو العيون السود شو بيجك أنا «والأجانة: المؤكّن وأقصها إجا واحدة الأجائين» فهذه إحدى شقائق /جن/ ومعناها لا يخرج عن العمل بهذا الماء الأجن.

ونجد في /وجن/ غلظة أرض وشظفاً لا نخرج منهما إلى لين إلا حين نقرأ: «الوجين: شط الوادي». هـ، ع، ء، ح، و، ي: هذه الحروف تقبل على الثنائي المضعف وتحل محل تضعيفه. كما أن الألف والواو والياء تتوسط فاءه وعينه وتقضي على التضعيف لذلك نراجع من أجل /جَنَ/ الجيم والنون على اختلاف الترتيب مع كل ما يستقبلانه أو يتوسطهما من هذه الحروف المذكورة.

لأجل هذا تتحول من /وجن/، بتحول جيمها دالاً، إلى /ودن/ حيث نعرف أن «أندن الشيء أي ابتلّ» وأنه «يقال: جاء مَطَرٌ وَدَن الصخر» أي بَلَّه ولينه، على المبالغة، وأن «الودان مواضع الندى والماء التي تصلح للغرس». وقد «جاء قوم إلى بنت الخس بحجر وقالوا: أخذي لنا من هذا نعلًا، فقالت: دَنوه» أي بلّوه أولاً، ردّاً على التعجيز بتعجيز.

وأهم ما يطالعنا في هذه المادة ما جاء على لسان اللث من أنه قال: «الدّين من الأمطار ما تعاهد موضعاً لا يزال يربُّ به ويصيه» وعلق على ذلك بالقول «لا يُعرَف الدّين في باب الأمطار».

والإخاءة التي تتبع ألفاظها (أفرادها) إنما تلاحظ المعاني التي تنضاف إلى الدنيا الاجتماعية وإلى الدّين. ولمسنا في أكثرها نصيب العقيدة والخيال وميزناه من نصيب الحس والعقل والوظائف الواقعية. وأكثر ألفاظها يشتمل على معنى المطر والماء. حتى /هدن/ فإننا نجد فيها معنى الدعة والاسترخاء والموادعة بين المسلمين والكفار. ومطالعنا تصرف النظر عن إمكان التصريح بدلالاتها على الماء حتى تبلغ السطرين الأخيرين وتقرأ: «الهدنة: القليل الضعيف من المطر». فقد يكون ذلك «الهدنة» بتحول التاء دالاً. ولكن /هتن/ هي شقيقة /أتن/ وهما وليدتا /تن/ شقيقة /ئن/ و/طن/.

2- الوثن والصنم:

لنحاول الآن أن ندرج مدرج تحول النون بعد تحوّل التاء. إن النون في طريقها إلى الميم والراء واللام. تتحوّل ميماً بسبب الجرسين الحنجري والأنفي المشتركين بينهما، وتتحوّل راءً ولأماً بسبب الجوار في المخارج وبسبب الجهر أيضاً. فقد فسر

ن ↔ م ، ثن ↔ ثم . ن ↔ ت ، ثم ↔ تم .

265

تفسير «التيّن والزيّتون» «جبلان بالشّام»، «مسجدان بالشّام»، «جبال ما بين حلوان وهمذان»، «جبل في بلاد غطفان»، هذا بالإضافة إلى قولهم: «التيّن والزيّتون هو الذي نعرفه»، و/تون/ قليل الفائدة، لكنما تكثر أسماء الجبال حول /وثن/. ولنا كلمة في /صان/، إذ علينا أن نعتبر صان من /صن/. فلا بد من أخذ تلك من هذه. وقد يخطر في البال أن /صن/ أصل الصنم. وأن الميم يمكن أن تكون ميم /أم/ التعريف عشقت آخر الكلمة. وهذا موضوع بحث جدير كل الجدارة بالاهتمام، لما قد يكشفه من أن جذر /أم/، الذي منه الأم والأُم، أصل لأداة التعريف التي تركت ميمها في صدر ألفاظ كثيرة وفي خواتمها، مع ما نُجي فيها من مناحي الدلالات المختلفة. وهذه مسألة تحتاج إلى متابعة وافية. وأبدأ النظر في /صن/ من ألعاب الطفولة. لقد كان بين البنائير التي نلعب بها واحدة مصنوعة من الحجر الصلد الداكن، وغالباً ما تكون هي القاذف واسمها «كَلِيح صَن». ويقول العالميون: هذا «حجر صَن». وحجر الصَن، عدا الدكنة، على الصفة التي ذكرت مهما كان كبيراً أو صغيراً وهو غير حجر الصُّوان. فقد يكون لفظنا /صَن/ تحولاً من /أصم/. لكن صَنْتُ أذني بمعنى طنت. وفي اللسان: «المُصِنُّ: الساكت» وتقول العامة: /صِن/ بمعنى أنصت واستمع لما ينادي أو لما يقال. وإذا دقت جرساً من حديد أو خشب صلد فإنك تسمع ترديداً طفيفاً كالذي نسمعه عندما نقول: صَنْتُ أذني. وهناك صخر إذا ضربته بالمطرقة يطن أيضاً لشدة صلابته وتماسكه كأنه قطعة معدن متراس صرف. وأغلب ما يطلق عليه حجر /صَن/ هو من هذا النوع في الصفاء وليس في الدكنة. ولنا في /صَن/ من المعاني المعجمية ما يذكرنا بذبائح وعناثر الأصنام. لا شك في أن نتناً كان ينبعث من أماكن النُحر وفي مواسم معينة. ولعله هو الذي خلق لنا «المصن: المتنن». و«الصُّنَّة» عند العاملين روائح المزاحل المتننة. وصِنين من مشاهير قمم لبنان. وفي اللسان: «المُصِنُّ: الشامخ بأنفه تكبراً أو غضباً»، و«من العظمة». فقد تميل إلى الاعتقاد بأن هذا المعنى دخل /صن/ من هياث بعض الأصنام.

بعد هذا نقبل على /صون/ لنجد فيها «الصُّوان» و«الصُّون» و«التَّصُون» و«الصائِن من الخيل». والقريب بين الصنم والصُّوان تظهر في وصف الأزهري له: «حجارة صلبة إذا مسته النار فُقع تقيعاً وتشقق، وربما كان قدحاً تقتدح به النار، ولا يصلح للنُّورة ولا للرضاف» والصُّون والصيانة مرجوان يرجوهما الناس من آلهتهم وأربابهم. والعالميون عندهم البيت «المُصُون» البيت الذي بسور من الحجارة لا من غيرها. ولا يبعد أن تكون /صون/ أخت /سور/ من خلال أخوية الصاد والسين والنون والراء:

ص	↔	س
ن	↔	ر
صون	↔	سور

ف «الصائِن من الخيل» هو «القائم على طرف حوافره من الحَفَا أو الوَجَى»، وأما «الصائم فهو القائم على قوائمه الأربع من غير حَفَا» وهنا تدفع بك /صون/ إلى /صوم/. وهذا مُبرَّر صوتياً ودلالة:

ص	↔	ص
و	↔	و
ن	↔	م

إن اللفظ الذي يوافق غيره في واقعه وأصله ومدلوله إنما هو شقيقه. لذلك لا نجد من أنفسنا الكفاءة على بت الأمر قبل النظر في /صم/. فإذا ساورك اعتقاد بأن /صم/ أخت /صن/ فإنك تدرك من بقايا أحوال العرب غير ما أدركه المعجميون. فقولهم «صُمْتُ حصاةً بَدَم» يفهم منه بعضهم «أن الدماء لما سُفِكت وكُثِرَت استتعت في المعركة، فلو وقعت حصاةً على الأرض لم يُسمع لها صوت وأنها لا تقع إلا في نجيع». ويقال: صَمِي صَمَامٍ، وصَمِي ابنة الجبل، يقال ذلك عند الأمر يُسْتَفْطَع. ويزعمون أنهم يريدون بابنة الجبل الصدى» ويقال إنها صخرة. ابنة الجبل صخرة، وابنة الجبل يمكن أن تكون الصنم التي يعبدونها. وقد لا يفهم قولهم لها صَمِي إلا على ضوء أسطورة الصدى حيث لا يسكن طائر القتل قبل أن يشار له ويروى بالنحر. وفي الحديث: أنه نهى عن اشتغال الصُّمَاء؛ فما هي هذه الشملة إذا لم تكن لباس «الصُّم» أو عبدة الصنم؟ قال أبو عبيد: اشتغال الصُّمَاء أن تجل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيته [. . .] الصُّمَاء ضرب من الاشتغال. وفي /صم/ معنى

القوة والسلاح، ورجل صميم: مَحْضٌ؛ وسيف صمصام و صمصامة: صارم». وقال الليث: اسم للسيف والليل. «والصمصمة: الأكمة الغليظة التي كادت حجارته أن تكون منتصبة». «والصمصمة: الجماعة من الناس كالزمزمة». لماذا سموا جماعة الناس صمصمة؟ أليست هي الجماعة التي تلتقي حول الصنم ولكن بحذف النون؟ ألا تجمع كلمة /الحج/ معنى المكان والفعل والحجيج؟ ولماذا يشترك اسم الليل مع اسم السيف في لفظ واحد؟ أما في ذلك شيء من صلة الصوان بالنار بالنجوم بالشمس والقمر؟ والبرق؟ هذه الطقوس الوثنية تتوقف إعادة بنائها على قدرة البحوث الأثرية - اللغوية لجهتي الكشف والترميم. ومن لا يفقه الحد الأدنى من قوانين تفرع الكلام يستغرب أن يُربط بين /صمم/ و/صام/ و/صنم/. إلا أن الصوامت من الألفاظ هي، في الغالب، كالأصلاص من الهياكل.

نقف عند الـ/صوم/ وما جاء عنه في الحديث والتزيل. جاء في الحديث: «قال النبي (ص): قال الله تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي». (لسان العرب، صوم). ونجد هذا يوافق الصوم الذي في النذر من قوله تعالى: ﴿إني نذرت للرحمن صوما﴾ وأرى - والعلم عند الله - في معنى الصوم الأضحية. فالصوم هو ما نذرته لتبذله على المذبح من البواكير قبل الاسلام. وما تزال لفظة /صوم/ في كلام من تبقى من رعاة بين الجليل وحوران وصور ترد في جملة تدل على سن الشاة. «عندي عزة على الصوم (عالصوم)». ويقصد أنها لم تلد بكرها بعد. والبكر هو الذي كان يقدم أضحية للالهة. وفي قوله: «من مات فليصم عنه وليه» يقول ابن الأثير: أكثر الفقهاء على الكفارة [. . .] إذ كانت تلازمه». وأكرر: الكفارة كانت تلازم الصوم. «والصوم، في اللغة: الإمساك عن الشيء والترك له». ومعها نقراً: «والصوم: البيعة، والبيعة: «كنيسة النصراني وكنيسة اليهود». وفي الجمهرة: «النسك أصله ذباح كانت تذبح في الجاهلية». والمكانس في الأصل من تلك الأكنان. فتلك معابد كانت قبل النصراني وقبل يهو-د (يهو + د = يهود). فلعل الصوم، بهذا المعنى بيوت الأصنام التي كان يجتمع فيها من يمارسون طقوساً دينية. وفي /صوم/: «صام النهار» و«صامت الرياح» و«صامت الشمس»، و«كان الثريا علقت في مصامها». تبدو هذه العبارات لغة تعبر عن بعض الكائنات بما تعبر به عن الناس.

مما لا شك فيه أن تركة الجاهلية التعبيرية التي كانت تحمل كل تفاصيل اللغة الدينية قد بادت ولم يبق منها سوى ما ذكره المسلمون لموافقة الإسلام، أو ما قد ذكروه في معرض نهى الإسلام عنه، أو ما بدا حيادياً لا يكثر له من جهة الديانة لأنه لم يمسسها بسوء. ومن هذا الأخير لفظ /الصوم/ الوارد في قولهم: «صام الرجل إذا تظلل بالصوم». وشرح ابن الأعرابي الصوم قائلاً: «الصوم: شجر على شكل شخص الإنسان كريح المنظر جداً، يقال لشمره رؤوس الشياطين».

فهذا شجر قريب الاسم والصورة من الصنم. ولعله كان موجوداً في بعض مواقع الأصنام لبني شبابة؛ وعن هذا الشجر قال ساعدة بن جؤبة: «مؤكل بشدوف الصوم يرقبها من المناظر مخطوف الحشا زرم» و«شدوفه: شخصه، يقول: يرقبها من الرعب يحسبها ناساً». والصوم: رمضان؛ والصوم: «الصبر على الطعام والشراب والنكاح».

ونرجع الى /صمم/ وننتقل منها الى /صنم/، مع أن هنا سبلاً أخرى تفضي إلى لفظ /صنم/. والصنم في لسان العرب: «واحد الأصنام، يقال: مُعَرَّبَ شَمْن، وهو الوثن». وبعد مقابلة بين معاني /صنم/ و/وثن/ يقول: هو ما اتخذ إلهاً من دون الله. ويخرج المطالع لمادة /صنم/ في لسان العرب كالمقتنع بأن هذا اللفظ غير عربي. فليس منه فعل ولا صفة، مجذوم مذموم، لا ذكر لشيء من أسرته سوى «الصنمة» و«النصمة» أي «الصورة التي تعبد» والداذية. لكننا نقراً في تاج العروس عن القاموس: «الصنم: خبث الرائحة»، وهو المعنى الأول. ومن هذا المعنى تتصل /صنن/ بـ /صنم/. وما يعقل من ذلك هو أن الذبائح أمام الأصنام كانت تفشي في الجو - بعد أن ينتن الدم - روائح كريهة منتنة إضافة إلى تنن الفرت. ولعل هذا ما دعا أبا نؤاس إلى القول: «ولست بأكل لحم الأضاحي». ويزيد تاج العروس: «الصنم: ما كان على صورة خلقه البشر والوثن ما كان على غيرهما». وهذا النفي لخلق البشر عن الوثن يقرب صورة الوثن من الطوطم. ويجدر بنا النظر في /طمم/: «طمّ الماء: علا وغمر»، و«الطم: الماء»، و«طمّ رأسه: جزه»، و«الطم: البحر، الماء الكثير، العدد الكثير، وطميم الناس: أخلاطهم وكثرتهم، والطميطم: ضرب من الضأن لها أذان صغار، والطمطة: العجعة، والطمطام: وسط النار».

يظهر أن /طمم/ من وسط /ثن/ و/تن/. . . فيها الماء والغمر والعدد الكثير والحيوان والنار. وليس فيها ما يدل على الأصنام صراحة ولا على العبادة خلا «الطمظام». ويعلق تاج العروس على ما يقال من أن /صنم/ «معرب شمن» بالقول: لا أدري أنه في أي لسان، فإنه في الفارسية بت. ويقول: «صنم تصنيماً: صَوْتُ». وهذا يوثق الصلة بين /صنم/ و/صنن/ بما هي هذه محاكاة صوتية. وما دام هناك شخص اسمه «صَنَام» فإننا يمكن أن نعتبر دلالة الاسم إما على التصنيم بمعنى التصويت وإما على التصنيم بمعنى صناعة الأصنام أو خدمتها كَعَبَاد. و«النَّصْمَةُ» قد تكون النسمة بمعنى الشخص من شقائقها، كما يقال: عبد اللات وعبد الله؛ «ابن الأعرابي: الصَّنْمَةُ والنَّصْمَةُ: الصورة التي تعبد». فهذا شديد الوضوح في كون الصنم صورة. و«شمن» التي قيل إن معربها /صنم/ قد تكون ما استكشف لاحقاً باسم «بعل شمين» أو «بعل سمين» الذي معبده في بلدة سَيْعَة (ر. ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص122). وفي مادة /سمن/ نقراً: «التسمين: التبريد، طائفة». وهذا الحرف يغري بصلة كبيرة بين الماء البارد والصنم والسمنة. ويزيد اللسان: ابن الأعرابي: الأسمال والأسمان الأزر الخُلقان. و«السُّمَيْيَّةُ» من عبدة الأصنام. كأنما الأصل في «الأسمال والأسمان» لباس السُدنة. ومن المشهور عند المتعبدين توارث عادة الاكتساء بالث من الثياب.

لولا كثرة الإشارات على /وثن/ في العربية ولولا عالمية أكثر هذه الجذور الثنائية المضعفة كان يمكن اعتبار لفظ /وثن/ من لفظ أثينا، لما كان للإلهة الإغريقية من تلاق وتفاعل مع اللات، من الطائف حتى تدمر. ولفظ /ثيو/ ٤٤٠ وأثنوس ٤٤١/ إلى جانب أثينا نجد/ثوى/ ونجد/عدن/ و/أذن/. . . وعندنا إلى جانب /صنم/ الد/سمن/ و/بجانب/ شمن/ أو /سمين/ مادة /س م ن/ التي ذكرت. وتتفق بعض مدلولات الجذور العربية التي توافق /وثن/ و/صنم/ في الأصوات والاشتقاق كثيراً مما نعرفه عن ديانة الوثنيين وأنظمة حياتهم. فمادة /أثن/ التي منها الد/أثن/ يمكن أن تتطور إلى /أثم/:

أ ث ن : ن ← م

[أ ث (ن ← م)] ← أثم

كما يمكن أن يشر من /أثن/ شيء إلى /أثم/ فيما لو امتنع التطور الصوتلغوي بينهما، لأن الألسن والأسماع تحيل النون ميماً وبالعكس. فانت تقرأ في /أثم/: «الإثم: الذنب، وقيل: هو أن يعمل ما لا يحل له». فقد لا يدخل الذنب في المحرم، لكنه هنا اعتبر غير حلال، أي أنه دخل حيز المنطقة الدينية. وعلى المذنب أن يتأثم بمعنى يستغفر. لكن التأثم قد تعني التقرب من الوثن والتمسح به والتضحية لأجل رضاه. قال ثعلب: «كانوا إذا قامروا قَمَرُوا وأطعموا منه وتصدقوا». فهل كان ما يطعمونه، أو ما يربحونه ويَطْعَمُونَ منه يسمى إثمًا؟ أم أن الإثم جناية مجهولة الجذر الذي طلع منه اسمها؟ لقد قيل: الإثم «هو واد في جهنم». و«شجرة الزقوم طعام الأثيم». والأثيم: الفاجر. وتفسيرهم الإثم بالقمار والخمر يشير إلى أن الإثم عمل كانت تسمح به الأوثان بل كان يجري في حرم الوثن وفي مناسبات (ربما) احتفالية. وقد يكون الفاجر من يفجر الدم أي من ينحر الذبائح، والقاسم من يقسم الجزور وفق ما تأتي القداح، ووفق أنصبة الميسر، أو ما شابه.

و/أثم/ أحت /أثم/ كما هي /ثم/ أحت ل/ثم/. وفي /أثم/ يقول لسان العرب: «أثم يَأْتِم إذا جمع بين شيئين ومنه سُمِّيَ المأتم لاجتماع الناس فيه». و«المأتم: كل مجتمع من رجال أو نساء في حزن أو فرح». و«قيل: الأتوم: الصغيرة الفرج». وأكثر ما يهمنا في هذه المادة لفظ ومدلول المأتم لنسأل: هل كانت المأتم تعقد في حضرات الأثن؟ وهل كانت الأثم، عظام الشجر، أثنًا؟ كل هذا تخمين يخدم الأثرية كما تخدمه.

ونترجع إلى /وثم/ لننتقل نحو /وسم/ لأن الثاء تبدل سيناً في الأحوال العادية. وغالباً ما تفعلها المدن. وأول ما يطالعك به ابن منظور قوله: «الوسم: أثر الكي». ثم نقرأ قوله في الوسام: «والوسام ما وسم به البعير من ضرورب الصَّور». ويهنا الالتفات إلى «الصور». وهذه الصور لا شك تختلف من قوم لقوم أي من /وثن/ إلى /وثن/ أو من جد إلى جد. وجاء في الحديث: على كل مَيْسَم صدقة، وشرحا ابن الأثير: «كل عضو موسوم بضع الله»، ونقل نحن: كل مؤمن، ولكن بلفظ أهل الأوثان والأصنام: كل مَيْسَم. ثم نندفع قليلاً لنجد أن «الوسمي»: قَطُر أول الربيع». وليقو هذا ثقتنا بأن ألهمهم كانت يستقى بها المطر. بل إن بعض الأمطار يسمى باسم طالع من /وسم/ شقيقة /وثن/ وشقيقه /وصم/ بنت /ضمم/ أحت /صنم/. وإذا

لم تصدق يأتيك ثعلب قائلاً: «أَسْمُهُ بمعنى وَسْمَتِهِ». وأراني مضطراً للتذكير بشرح لسان العرب للوسوم: الوُسُوم والوُسُوم العلامات، والوُسْم «ثمانون قرية». وعندنا «نجوم الوسمي». وبها نرقى نحو الصفة السماوية درجة أعلى. والمُوسِم تعني المجتمع. ولكن أي مجتمع؟ «مُوسِم الحَجِّ والسُّوق» مجتمعهما «وكل مَجْمَع من الناس كثير هو موسم ومنه موسم مئى». يبدو أن الموسِم يتجاوز أهل الوثن أو يتجاوز المتسلسلين من جد واحد. إن السوق يقضي أن يتبادل الأقوام بضائعهم على تباعد أعراقهم. «والموسِم: الثابت الحُسْن». «والموسمة: شجر له ورق يُخْتَضَبُ به وقيل هو العِظْلَم». وهذا اللفظ بعث في شكوكاً كثيرة. هل السلام منه زائدة؟ وتختم المادة في لسان العرب بالقول: «والموسم: الوَرْع، والشين لغة؛ قال ابن سيده: ولست منها على ثقة». المسلمون المتشددون مع جَبِّ المعاني التي تضايق معاني إسلامية أصيلة. لكن اشتغال /وسم/ على معنى الورع يجعلها في صلب الدِّين، ربما الحنيف.

يمكن لـ/ثم/ الثنائي المضعف أن يَسْتَبْدِلَ بأحد عنصري التشديد ألفاً أو واواً في أوله أو عينه أو لامه:

وتم → ثم ← وثم
← نوم

تتحول الشاء سيناً والألف واواً ونصير إلى: /وسم/، /سام/، /سما/، /السُّمُو: الارتفاع والعلُو. «والسما: السحاب» والمطر. «ويسمى العشب أيضاً سماءً لأنه يكون عن السماء» وقد يكون أحياناً للثمام، وليس لُسُوم. «والسما: ظَهْرُ الفَرَسِ لعلوه!! وسماء النعل: أعلاها التي تقع عليها القدم» (!) «والسما: الصيادون»... «جمع سام. والسامي: هو الذي يلبس جوربي شعرٍ ويعدو خلف الصيد نصف النهار». «وسماوته شخصه». «والسماوة: ماء بالبادية» واسم الشيء وَسْمُهُ وَسْمُهُ وَسْمَةٌ: علامته. «وقال أبو العباس: الاسم رسمٌ وَسْمَةٌ توضع على الشيء تُعرَفُ به». ومن /سما/ «السومة واليُسومة واليُسما واليُسما: العلامة». «وسنت النار: علا صَوءها». إن لفظاً مثل Sun/ (الشمس) بالانكليزية يذكرنا به لفظ السناء بالعربية ويربط بين الشمس والنور والنار والـ صُن - م. /و/ سما/ و/شما/ أخوان. «التهذيب: ابن الأعرابي قال: شما إذا علا أمره، قال: والشما والشمع، والله أعلم». عاد النور يرتبط بالسمو. وعاد الصنم يرمز لعبادة نيرات السماء، وأسباب المطر والعشب. الآلهة مثل البشر تحب الأجواء الندية المشرفة المعشبة. «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان».

وتوصلنا /ثم/ إلى /دم/ بهذا المجرى: ث ← ت ← د؛ كما توصلنا /ثن/ إلى /دن/ بالمجرى عينه. وفي /دم/ نجد معنى الطلاء الأحمر على الأغلب. «دَمُ الشيء يَدْمُهُ دَمًا طلاه. والدَّمُ والدَّمَام ما دَمَ به». «ودَمُ السفينة يَدْمُها دَمًا: طلاها بالقار». والدَّم: نبات. والدَّم: القرابة. «ودَمُ رأسه يَدْمُهُ دَمًا: ضربه فشدخه وشججه». «والدَّمَامة: المفازة لا ماء بها. القلاة الواسعة». «والدَّمَامد شيء يشبه القَطْران يسيل من السَّلَمِ والشَّمَرِ أحمر». «والدَّمَمة لعبة». «والدَّمَمة خشبة ذات أسنان تدُمُّ بها الأرض بعد الكِراب، أي تُسَوَّى». والميل ظاهر عند أصحاب المعجمات إلى فصل المواد عن بعضها. إنهم ميالون لفصل /دم/ عن /دمي/. وفي معجم /دمي/: الدَّم من الأخلاط: معروف. وقصده السائل الأحمر الذي يجري في عروقنا. «وفي حديث العقيقة: يُحَلَّقُ من رأسه ويُدْمَى». «وكان قتادة... قال: إذا دُبِحَتِ العقيقة أُخِذَتْ منها صوفةٌ واستَقْبِلَتْ بها أوداجها، ثم تُوضَع على يافوخِ الصبيِّ ليسيل على رأسه مثل الخيط، ثم يُغسل رأسه بعدُ ويُحَلَّقُ» وقال ابن الأثير: «هو منسوخ، وكان فعل الجاهلية». «والمُدْمَى الثوب الأحمر». «والمُدْمَى من السهام الذي ترمي به عدوك ثم يرميك به... وعليه دَم». وكانوا يُقْسِمُونَ بـ الدم. ففي حديث الوليد بن المغيرة: والدَّم ما هو بشاعر، يعني النبي (ص)، هذه يمين كانوا يحلفون بها في الجاهلية يعني دم ما يذبح على النُصْب. ومنه الحديث: لا وَا لدَّمَاءِ أي دماء الذبائح، ويروى: لا والدَّمى، جمع دمية وهي الصورة ويريد بها الأصنام. والدَّمِيَّة الصنم. ويقال للمرأة: الدَّمِيَّة. «ودَمَى الراعي الماشية... أزعها فسمنت حتى صارت كالدمى... «وفي صفته (ص) كَأَنَّ عُنْفَهُ عُنْفُ دُمِيَّةٍ، الدُمِيَّة: الصورة المصوّرة لأنها يَتَنَوَّقُ في صنعها ويُبَالِغُ في تحسينها». «وساتى دَمًا: اسم جبل، يقال سُمِّيَ بذلك لأن ليس من يوم إلا يُسْفَكُ عليه دم». والدَّم: الدَّم. وهو قول الكثير من الناس وقول الهذلي: «وتشرق من تَمَاها العين بالدم». وقد كان التركيز في /دم/ على الطلاء. بينما ركز في /دمي/ على السائل الحيواني الأحمر وعلى الدُمِيَّة بمعنى الصنم. فهل يكون الاسم المشتق من الدَّم مركز العلاقات الاجتماعية وعلى رأسها القرابة والدين؟ يقال: «خذ ما دَمَى لك أي ما

ظهر لك. ودُمِّي له كذا وكذا إذا قَرَّبَ». والأصاحي كلها تقريباً إلى الآلهة. وهنا نرجع ونذكر بأن الدَّين تعني، فيما تعني، الماء. ولا ننس جيل «سائي دَمًا» الذي يذكرنا بأن مراكز أصنام كثيرة كانت في الجبال. وحول /دمي/ تستطيع أن تنظر في /دنا/ و/دام/ و/دون/. وينبغي النظر أيضاً في /دية/، و/دام/.

3 - اللات والله

ونعطف الآن انعطافاً آخر. ونحاول في هذا الانعطاف الانتقال من /وثن/ إلى /وتر/. وسيلنا هو التحول من: ث ← ت، ومن: ن ← ر. وفق تاج العروس: «الوتر، بالكسر، لغة أهل نجد، وفتح، وهي لغة الحجاز: الفرد». وقيل: الشَّعْ يُومُ النحر والوتر يوم عَرَفَة. وقيل الأعداد كلها شَفْع ووتر». وقيل: الوتر الله الواحدُ والشَّعْ جميع الخلق خلقوا أزواجاً» و«الوترية: نُورُ الورد؛ والوترية ماء بأسفل مكة؛ والوترية اسم لعقد العشرة. والوترية: الطريقة. . . من التواتر أي التابع» و«الوترية عقد العشرة». و«الوتر ما بين عرفة إلى ادم». و«الموتور من قتل له قتيلاً فلم يُدْرِكْ بدمه». و«الوتر من أسماء الله تعالى وهو الفرد الفذُّ جل جلاله». و«الوتر جبل لهذيل على طريق القادم من اليمن إلى مكة به ضيعة يقال لها المطهر لقوم من بني كنانة». هذا اللفظ مشبع بالروح الاجتماعية والدينية. الفرد والله الواحد والحساب و«يوم عرفة»، و«نور الورد»، و«ماء» و«عقد العشرة» ولا تفصل هذا اللفظ عن معنى العشرة. ونضيف إليه صفة العصبية حيث يكون الوترية «عَصْبَة تحت اللسان» و«العرق» من الذكر. فهذه مؤسسة اجتماعية واضحة الكثير من المعالم. وفيها الماء والجبل وفي الجبل ضيعة «المطهر» والاسم فيه معنى الماء والعقيدة الدينية والوطن، ثم إن /طهر/ من شقائق /طر/ و/ترد/ و/ثرد/ و/أكر/ و/عقر/ وإذا شئنا أن نجتمع هذه الشقائق لنطرح منها لاحقاً ما ليس مستعملاً لجأنا إلى طريقتنا في إضافة ما تضيفه العربية وتحول ما تحوله في مثل /طرر/، أي في الثنائي المضعف (ذي الصامتين المختلفتين):

طرر، ترر، ثرر، كزر، قرر

فإنها تأتي كالتالي:

أطر، وطر، عطر، ...

أتر، وتر، عتر، هتر، حتر

أثر، وثر، عثر، ...

أكر، وكر، عكر، حكر.

أقر، وقر، عقر، حقر

ثم الأجوف بالعلة والأحرف الجوف:

طور، طير، طار، طهر، طحر، طعر.

تور، تير، تار، تهر، تعر.

ثور... .

تليها النواقص منها. ثرى، كرى، طراً، قري، قرو. ثم تتحول الراء لأمأ ونقع على /ثلل/ و/ثال/ و/تال/ و/تال/. ونقف عند /ثرر/ فتجدها تدور على الماء. وتستنتج إذا كانت لك عشرة مع النبايع الجارية ان صوت /ثرر/ نابع مع تلك المياه. فإذا فتحت معجباً مثل Petit Robert على أسماء العلم المشتملة على ثاءٍ وراء متواليين تجد Therain وشرحه: نهر... . وعين ثرة وثرة وثرة: غزيرة الماء... . وكذلك السحابة». و«عين ثرة»: كثيرة الدموع». وجمع شعر عترة ثرة وقرارة في بيت.

«جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل قرارة كالدرهم»

و«رجل ثر وثرة: متشدد كثير الكلام. النبي: أبغضكم إلى الثرثارون المتفهبون». والثرثار: نهر. والثرثار عين غزيرة. و«ثررت المكان مثل ثرثته أي نديته». و«ناقة ثرة واسعة الإحليل، وهو يخرج اللبن من الضرع». ومع نبع الكلام كانت أهر الثرة.

يبدو هذا اللفظ مختصاً، في الأصل، بمعنى الماء ونبعه وجريانه. ولكن لماذا لا نفترض ان الوثن مشتق الاسم من محيط أصوات

الماء؟ وإذا افترضنا أن أصل اللفظ غير عربي - وأرجح أنه عربي - فلا يمتنعنا ذلك من افتراض نشوء ذلك الاسم الأم من أصوات ثرثرة الماء عند غيرنا كذلك. إن /لثن/ «أي حلو» ونهر الليطاني، ولا نعرف تحولات لفظ اسمه، يكادان يقتنعنا، إضافة إلى «الوثن»، بأن اسماء ثلاثية كثيرة يجتمع فيها التاء والنون أو أخواتها إنما أصلها أصوات مائية. كأنما كان الوثنُ إله الماء، والأوثان آلهة الماء. ومثلما تعلق اسمهم إحدى المواد في زمن ما (البُرُّ مثلاً) تعلق اسمهم أحد الآلهة: الوثن مثلاً، الديان مثلاً. ويسبق نشاط ويغلب نشاطاً إنسانياً آخر: الحرب، السياسة، الاقتصاد، الثقافة، الفن... لكل دور أعلى.


و/ثر/ أم لأسر واسعة فيها /سرر/ و/سار/ و/سارو/ و/سري/ وقال الفراء: «السَّرُّ أخصبُ الوادي». وأسارير الوجه: «شآبيب الوجه أيضاً ومُنبَحاتُ الوجه». «والسَّرِيُّ: العَيانة من النساء»، في قولهم: «أَزَيْتُكَ بالله من نفسِ حَرَى وَعَيْنِ سَرَى».

وإذا تركنا الأئنة للأشعة فلإننا لا نعرف أين تحط بنا. لذلك سندرس عدداً محدوداً منها /ثرى/. ثَرَرَسَ ثَرَى؛ انتقل تركيز اللفظ عن /زُر/ إلى /رى/. «والعرب تقول: شهر ثَرَى وشهر ثَرَى وشهر ترعى.. فأما قِيْهِمْ /ثرى/ فهو أول ما يكون المطر فيرسخ في الأرض وتبتل التربة». ويقال: ثريت بك أي فرحت بك وسرت: /ثر/ سر. «والثَرِيَا: من الكواكب - سُميت لغزارة نُوءِها». يقولون مُطِرُنَا بنوءِ الثَرِيَا. وإن /مطر/ ذاتها ينظر إليها من زاوية كونها تتألف من: م + طر، أو، في الأصل، من: م + ثر. نلاحظ كيف ترقى بنا مادة الماء من الأرض إلى السماء. من عالم المطر والأرض الثَرِيَّة إلى الثَرِيَا وعلم الأنواء الذي أدى إلى تمثيل أيام السنة الشمسية بثلاث مئة صنم وستين صنماً «حول الكعبة» (الواقدي، المغازي ج 2، 832) «هُبْل أعظمها، وهو وَجْه الكعبة على بابها». فلتتذكر /سنن/ و/سنو/ والسنة. ولتتذكر /ثني/ وأن /الاثنين/ واحداً «الاثن». «والثنية» واحدة الثنانيا من الأسنان: سن /ثن. «ويقال ثنيت البعير يثنان كأن الثنايين كالواحد وإن جاء بلفظ اثنين ولا يُفَرِّد له واحد». وكان هناك لفظاً مفرداً يدل على واحد حيناً وعلى اثنين حيناً. والاسم - فيما يبدو - اشتق من لفظ /الاثن/ أو /الوثن/. وكل الألفاظ التي حاروا في تخريج معناها كالثَنِيَا «من الجرزور: الرأس والقوائم» و«ثني من الليل أي ساعة»، و«الثنون: الجمع العظيم»، و«الثنيان» من الرجال: «يَعْدُ السيد»، و«المثاني من القرآن»، هذه وغيرها لا تجد تفسيرها من دون مادة /ثن/ و/وثن/. «والثناء؟! ما هذا الثناء؟! وأثنى عليه؟ ما هي؟ والثناء: «ما استُكِّبَ من غير كتاب الله» ما هي يا ترى؟ إن هذه الثروة الكبيرة في /ثني/ تشير إلى وثن ما. مزدوج الصورة على الأغلب. لعل فيه الذكر والأنثى - وتضم مادة /أنث/ بالطبع إلى /ثن/ - ولعل «الثناء» كتاب ذلك الوثن. فيها - نظن - أدعية لذلك الرب وصلوات، وقراءتها تلاوة. وما هي تلك الإناث اللاتي جاءت فيهن الآية: «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا إِنشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا» (النساء، 117)؟ أهى اللات والعزى ومناة؟ أم هي سائر الأصنام، والصنم في «لسان العرب» مؤنثة؟ وهذه الثنائية في الاثنتين هل يكون وراءها الوثنام (من تَام) المقبل ما بين إله الجنوب وآلهة الشمال؟ «تجد إلهين أحدهما مذكر يُعْبَدُ في الجنوب من شبه جزيرة العرب وهو عشتار، والآخرى أنثى يختص بها سكان شمال الجزيرة ألا وهي اللات» (رينيه ديسو، العرب في سوريا ق. س. ص 124 ط 2، 1985).

ونقف عند اللات في اللغة. ونجد في /لت/: «لَتَ السَّوِيْقُ أَي بَلَّه»؛ «وَقَدَلْتُ فَلَانَ بَلْلَانًا إِذَا لَزَّ بِهِ وَقَرَنَ مَعَهُ». و«اللات»، فيما زعم قوم من أهل اللغة: صخرة كان عندها رجل يَلْتُ السَّوِيْقَ للحاج، فلما مات، عُبِدَتْ. والليث، وهي مهمة من الليث، يقول: «وفي حديث مجاهد في قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى؟ قال: كان زَجَلٌ يَلْتُ السَّوِيْقَ لَهُمْ، وقرأ: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى؟ بالتشديد». قال الفراء: «والقراءة اللات بتخفيف التاء، قال: وأصله اللات، بالتشديد، لأن الصنم إنما سُمِّيَ باسم اللات الذي كان يَلْتُ عند هذه الأصنام لها السَّوِيْقُ أَي يَخْلُطُهُ، فخفف وجعل اسماً للصنم».

وأنت تجد أن أول المعاني يشتمل على الماء وهو بَلُّ السَّوِيْقِ «المتخذ من الحنطة والشعير». المعنى الثاني معنى الاقتران. المعنى الثالث هو الصخرة التي كان عندها يَلْتُ السَّوِيْقُ ثم عُبِدَتْ، أي جُعِلَتْ ربة، إلهة، صنم. ومن قرأ بالتشديد شاء أن توافق اللات اسم الفاعل وفقاً لتصور المعنى.

ويهمنا من /لت/ شيء آخر هو ما ذكره ابن الأثير: «وذكر أن التاء في الأصل مخففة للثانيتين». وبعد ذلك يقول ابن منظور: «وكان الكسائي يقف على اللاه، بالهاء. قال أبو إسحق: وهذا قياس، والأجود اتباع المصحف، والوقوف عليها بالتاء. قال أبو منصور: وقول

أنا اعتبر أن هذا النص من أهم النصوص التي جاءت في اسم الجلالة. وبناء عليه نفهم أن /اللات/، اسم الفاعل من لَتَّ، مذكر، وأن /اللات/، بدون تشديد التاء، مؤنث. وأن صيغة التأنيث تُخْرِجُ اللفظ من مادة /لنت/، وتمكِّن المتكلم من تبديل التاء هاءً، مما يجعل اللفظ: /اللاه/، كما لفظه الكسائي؛ وهذا يجعل التجانس بين اسم الصُّنَم واسم الله (جلت عزته) تاماً: اللاه = الله. وقد كنا نريد أن نتساءل عن الفرق بين الاسمين في التفعيم. لكن استنكار أي منصور كان حلاً دالاً على المطابقة التامة. بقي أن نحاول الحصول على صورة لاسم اللات قبل التنزيل وثانية لاسم الله. ونجد اسم اللات بالخط الصفوي ضمن نقش مصور في كتاب تاريخ اللغات السامية لـ إ. ولفنسون، بيروت 1980، ص 186، على شكل سلسلة تمدها على الصفحة من اليمين إلى الشمال ثم تعطف بها إلى اليمين ثم إلى الشمال هكذا: ، وذلك من أسفل إلى أعلى. وتأتي صورة اسم اللات ضمن هذه السلسلة، التي لا نجد فيها فصلاً بين كلمة وأخرى، بعد أول المنعطف من الشمال إلى اليمين. لذلك تأتي قراءتها كذلك من الشمال إلى اليمين بخلاف السطر الذي سبق سطرها والسطر الذي جاء

وهنا تكون اللات في: ه ل ت. ويقدر الاثريون نطقها بهاء الرءاء متصلة باللام بعد حذف همزة /أـ/. ويكون المعنى: يا اللات... لكننا نجد عندا. ولفنسون، ص 184، نصاً آخر، النص رقم (1)، كتب من أعلى الى أسفل ومن الشمال إلى اليمين فالشمال هكذا: ، أي بعكس الأول وفيه آخر كلمتين: ٨ \ ٤ + ٢ \ ١ ع . ولفظهما: فها اللات سلام. لكن ولفنسون بعد ان أثبت لكل حرف م ل س ت ل ح ف

«ومن العجيب حقاً أن نجد كلمة الله تدل على إله في مجموعة [نصوص] عربية قبل الإسلام بخمسة قرون أو ستة. غير أنه من الغريب أن هذه الكلمة قد وردت في النصوص الصفوية خمس مرات ولكننا نهمل كيف كان الصفويون يكتبونها. والواقع أن هذا الاسم المقدس كان مسبقاً دائماً بهاء [هـ] النداء. ومع ذلك، قفياً على اسم اللات، نستطيع أن نذهب إلى أنه، في حالة الأفراد، كانت تكتب **هه** وأن العبارات التي ترد فيها الكلمة بهذه الصورة **هه** (فيها هاء النداء) تدل على أن هناك حذفاً للألف التي في صدر الكلمة. وهذا يدل على أن المجموعات العربية، منذ أول التاريخ الميلادي، قد فقدت تماماً الشعور بقيمة الأداة [لعله يقصد هاء ها الله] في العنصر الأول من الكلمة. وأصبح مثل هذه الكلمة مثل لفظ اللات». (ص 133 - 134).

إذن يكون الفرق الذي لا سبيل إلى محوه حتى الآن - رغم قراءة الكسائي واعتراف أبي منصور وابن الأثير - هو ان /الله/ مذكر، و/اللات/ حتى بلفظها الآخر أى /اللّه/ مؤنثة عدا ما يداخل هذا اللفظ من تذكر لاتصاله باسم الفاعل من /لّت/.

272

رجلاً سمع آخر يقول لعمر: «أتى الله يا أمير المؤمنين» فقال له السامع مستكراً: «أتأتى على أمير المؤمنين؟» و«روي عن الأصمعي أنه قال: «لأنه يميناً يألته التاء إذا أُحْلِفَ». وهذا من /اللات/، فلا أجد فيه شكوكاً. كان اللغويين الأوائل قالوا لنا: هذا من هذا.

ونلاحظ أن /ألت/ تعود فتلتبس بـ/ليت/ حيث نقرأ في شرح /ألت/: «وَأَلَّتهُ أيضاً: حسبه عن وجهه وصرفه مثل لَأَنَّهُ يَلِيَّتُهُ، وهما لغتان، حكاهما اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاء». وفي التنزيل: «وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ». قال القراء: الألت: النقص، وفيه لغة أخرى: وما لَتْنَاهُمْ». أما /لات/ و/ليت/ فأصلهما استغاثة باللات (فها اللات) أو فيا ليت. وقد ينظر في أمر /التى/ و/اللاتي/ و/تلا/. وقد يحلوا لك أن تنظر في /عنت/.

ورسوخ لفظ /الله/ ظاهر في /آله/ و/وله/ و/هل/، مع أن الأخيرة تجعل الباحث يفكر في أمر الهلال والعبادة القمرية. وقد يكون لله في مواد /الو/ و/علو/ و/عله/ شيء من التناسل اللغوي لفظاً ودلالات. ومدى اتساع المشتقات المتفرعة من أحد الجذور يدل على أهمية خاصة لأحد مراكز ذلك الجذر. يمكن أن تنشأ حول المؤسسة المركزية مؤسسات فرعية، ويمكن أن تشعب من اسمها أسماء وأفعال أو يمكن لذلك الاسم أن يدخل في تركيبات تظل تتجاوز الحصر. فمن الأسماء الكبيرة التي تشعبت لأهمية وظيفتها كلمة /أم/ وهي لم ندرس بعد دراسة وافية. ومن أهم الألفاظ الدائرة في فلك الديانة الوثنية لفظا /عتر/ و/عقر/. فـ/عقر/ يتسع بطرق عدة أهمها: أن يدل المشتق منه بوزن معين على أكثر من شيء، وأن تتكاثر مشتقاته وتنظم في أكبر عدد من مقاييس الكلام، وأن يدخل اللفظ المشتق مع غيره ليدل على معان لم تكن من ضمن المادة. وهذا الشعب والتوسع والتكاثر يشبه في هيئته هيئة المؤسسة التي يعبر عن ترامي وظائفها وعلاقاتها وإنتاجها. والطريقة الرابعة التي يتم بها التوسع هي تحوُّل بعض أو كل أصوات اللفظ لتنشأ ألفاظ لم تكن، أو لتحتاج مدلولات اللفظ المتحوِّل إلى غيره مساحة من مشتقات ذلك الغير. وقد تكون المؤسسة دينية سياسية أو عسكرية أو ثقافية. وقد تكون شخصاً أو مادة لها من الأهمية ما يملأ الشواغر ويحرك السواكن ويطيح المهلَّه.

ويمكن أن يحدث عكس هذا، فتكون إحدى المؤسسات أو أحد الأشخاص قد احتلَّ قطاعاً واسعاً من الأوزان التي تنوف الألف والمئة، ويتصدع وينهار. وبانهياره قد ينهار البنيان اللغوي الذي قام بقيامه. كما ترى في انهيار معسكر اللات. فلا /ليت/ ولا /لوت/ ولا /ألت/ إلا ما احتل مكانة لم يزاحمه عليها لفظ من المؤسسة الطالعة. فهذه /لَيْتَ/ في عز صباها، إذ لا مثل لها يضاهيها.

وخلاصة هذا المقال على الصعيد الديني تشبه الخاطرة التي ما تزال تنتظر من يجلو غوامضها؛ ومؤداها أن الآلهة في جنوب الجزيرة وفي شمالها ووسطها كانت عشية نهوض الاسلام على وئام فيما بينها. ولم توح المادة اللغوية الواسعة المتعلقة بأسماء أولئك الآلهة بأي تناحر يذكر فيما بين أفرادها ومجموعاتها. وبعبير مختلف: إذا كانت القبائل تقتتل وتتعدى فإن كل إله من الآلهة المتعدية أتباعها لا يدعى إلا إلى مثل ما يدعى إليه الإله الآخر. بل يبدو أن المغازي ما بين القبائل كانت ماضية نحو إسقاط اضطراب القيم. وإن بعض القبائل أو الأقوام عرفوا آلهة غير محلية ولم يعارضوها كثيراً ولم يبالغوا في التعصب لها. ولعل الإسلام قد حمل هذا الطابع فلم يعاد القيم الكبرى في الجاهلية ولم يعتبر وجوده مرهوناً بإلغاء ما عداه. وإن الله العلي العظيم قد لاقى من الآلهة الوثنية إذعائاً وتسليماً أعجل من ذاك الذي لاقاه البدر الطالع من ثنيات السداع في صفوف الأحلاف وفلول الأحزاب؛ وأسلمت له العريضة الوثنية وجهها ومضت في التطهر، قدر المستطاع، من مدلولات الآلهة المهزومة التي قد تُغضبُ جلاله وعزته.

الهوامش

(*) إذا كان المقصود لفظ الله فيجب أن يكون الحرف الأخير هاء / هـ / وليس تاء كما هو مرسوم. والأغلاط كثيرة في النصوص المكتوبة بالحرف العبري أو الحرف اليوناني. فلا يميزون السين من الميم ولا التاء من الهاء ولا العين من الجيم. . . عدا ما جاء رأسه في موضع رجله في ترجمة ر. ديسو الراهنة.